وقد أدركت الدولتان الغربيتان الكبيرتان ، أعنى بريطانيا العظمى وفرنسا ، ما تقتضيه هذه العوامل والظروف الجديدة من تغيير عميق فى سياستيهما ، وخصوصاً أزاء ما تبديه الدولتان الفاشستيتان أعنى ايطاليا وألمانيا من نشاط متواصل فى الاستعدادات العسكرية ؛ فاما فرنسا فقد اقتنعت بأن المواثيق والعهود الدولية لم تبق لها قيمة يعتمد عليها وان المانيا النازية بعد أن حطمت كل ما تبقى من عهودها فى معاهدة الصلح وفى لوكارنو ، وأخذت تستأنف قواها العسكرية القديمة ، لا يمكن ردها وكبح جماح عدوانها وأطماعها الا بمضاعفة الاهبات العسكرية ، وهذا ماتفعله اليوم هى وحليفتها روسيا السوفيتية التى تحذر من عدوان المانيا مثل ما تحذر فرنسا ؛ واما بريطانيا العظمى ، فقد اقتنعت بعد مأساة الحبشة بانهيار فكرة السلامة المشتركة وعبث الاعتماد عليها فى رد الاعتداء المدبر ، وأدركت ما يهدد سلامة الامبراطورية البريطانية من جراء ظهور الفاشستية الايطالية بمظهر الظافر المتحفز ؛ فاخذت تستدرك بسرعة مدهشة ما فاتها من الاهبات العسكرية ، ووضعت برنامجا هائلا للتسليح يكفل لها تفوقها القديم فى البحر والهواء ويمكنها من أن تعود فتملى كلمتها وارادتها على أولئك الذين يتحرشون بها ويحاولون تحديها ومنافستها ، وتزداد العلائق توثقا بين الدولتين الغربيتين الكبيرتين ، يجمع بينهما الخطر المشترك ، والمصالح المشتركة ، وروابط الديموقراطية

وهكذا تعود أوربا الى ما كانت عليه قبل الحرب : معسكران خصيمان يعمل كل منهما لاحراز التفوق فى الاهبات العسكرية ، ويسيطر كل منهما بنفوذه على عدد من الدول الصغيرة ؛ وهذان هما معسكر الفاشستية ، تقوده المانيا وايطاليا ، ومعسكر الديموقراطية تقوده بريطانيا وفرنسا ؛ وهكذا تعود الدبلوماسية الأوربية الى وسائلها القديمة من عقد المحالفات العسكرية والمعاهدات السرية والاعتماد على القوة الغاشمة

(***)

فى الأدب المقارن

الخيـــــال

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

الخيال ، أو القدرة على انتزاع شتى الصور الذهنية من الواقع واستحضارها والتصرف فيها ، من المواهب التى يمتاز بها الانسان على سائر الاحياء ، ويمتاز بها النابغة على سائر الناس . ورقى العلم رهين برقيه ، واتساع الأدب متصل باتساعه ، وهو بين الجماعات الأولى مصدر تلك الأساطير والأوهام التى تسود بينهم ، كما أنه مصدر ماتغص به اللغات من مجازات وتشبيهات ، بها تتسع جوانب اللغة وجوانب التفكير معا أيما اتساع ، ولولا الخيال لالتزم الفكر الانسانى الواقع المتحجر أى التزام

والخيال قوام جانب عظيم من الأدب ، إن لم يكن قوام الجانب الأرقى فيه ، إن لم يكن قوام الأدب جميعاً : فالمجازات والتشبيهات يتأتى للأديب أن يصور شعوره ويبرز تفكيره ، إذ يمثل لنضرة الخد بنضرة الورد ، ولطلعة البطل بهيبة الأسد ، ولجيشان المعركة بتدافع الآذى ، ولهم جرا . وبالخيال يستطيع الأديب أن يسبك موضوعه ويجمع أطرافه ، وينبذ ما لا حاجة به إليه من تفصيلات قد تشوه ماهو بسبيله ، ويضفى ثوبا من الجمال والانسجام على ما ينشىء . والخيال أظهر ملكات الشاعر وأول مميزات الشعر التى تفرق بينه وبين النثر

وارتقاء الخيال واتساعه وكثرة آثاره أهم ظواهر دخول الأدب فى طوره الفنى : فانه إذا خرجت الأمة من بداوتها وعزلتها وبسطت سيادتها واتصلت بجيرانها القريبين والبعيدين ، وتحضرت وتثقفت ، اتسعت أذهان أبنائها وترامى خيالهم وتصوروا من الحقائق والمعانى والممكنات مالم يكونوا يتصورون ، وغزر المعين الذى يستمدون منه التشبيهات والاستعارات ، وينتزعون منه الحكم والأمثال ، ويتوفر الفراغ ويتسع للجهود الأدبى المتصل ، فتظهر القصة والدرامة والقصيدة الطويلة ، ويحلق الأدباء فى أجواز الخيال وآماد الماضى والمستقبل ، مبتعدين عن دواعى الحاضر الحازبة ومجالاته الضيقة ، ولا يبلغ الأدب أوج رقيه

حتى يرتقى الخيال فيه هذا الارتقاء وحتى يشغل أكثر جوانبه

وللخيال فى الأدب الانجليزى مكان رفيع وأثر بعيد شامل يتمثل فى موضوعات الأدب وأشكاله وطرائق تناول الأدباء لما هم بسبيله : فالأديب الانجليزى غزير العاطفة ، إذا جاشت أطلق لها العنان واسترسل مع خياله ، وأثار به منظر طبيعى أو غناء طائر أو ذكرى طارئة أو أثر من آثار الغابرين أو أسطورة من أساطيرهم شتى الأحلام والأطياف ، وتناهت به عاطفته إلى حدود الأمانى وآفاق الماضى والمستقبل ، وهذا الاسترسال مع الخيال إذا أثارته فكرة رئيسية هو مرجع وحدة القصيدة فى الانجليزية

وهناك عدا هذا الخيال المنبث فى كل مناحى الأدب أشكال خاصة من الأدب قوامها الخيال ، ينهض بكيانها ويوثق وشائجها . وهذه هى الملاحم الطوال فى الشعر والقصص الممثلة أو المقروءة شعراً أو نثراً ، ففى هذه لايلتزم الأديب الواقع المجرد بل يفترق عنه افتراقاً جسيما ، ويؤلف من شتى أفكاره وتجاربه وأمانيه وصور الحياة التى مرت به ، عالماً يجيش بالحياة والحركة ويموج بالعواطف والنوازع ويفيض بالجمال والامتاع ؛ بهذه الضروب القائمة على أساس من التخيل المحض يحفل الأدب الانجليزى

فقد عالج الملاحم والمطولات من القصائد ملتون وسبنسر وهاردى ووردزورث وكثيرون غيرهم . وأشعار الملاحم تعج بالمردة والجبابرة والآلهة ، وتحفل بخوارق الأعمال وجسائم البطولة ، وهى على رغم هذا لاتخرج عن عالمنا الانسانى ولا تغفل النفس الانسانية ، بل تظل نوازع تلك النفس ومشاغلها هى الهدف الوحيد الذى يرمى إليه ناظموها : إذ فيها يتخذ أولئك الأرباب والجبابرة طبائع الناس وميول الأفراد ، وإن فاقوا البشر قوة وعظما ؛ ومن هنا يتأتى للشاعر أن يبسط آراءه فى ميدان متسع وإلى مدى فسيح ، فيستعرض مشاغل عصره ويبث خوالج نفسه ، فالخيال هنا لايعدو الحقيقة وإنما يوضحها أحسن توضيح ، فضلا عما يمتع النفس به من قصص متسق وجمال وجلال

وفى الأدب الانجليزى مالا يعد من قصص فى الشعر والنثر ممثلة ومقروءة ، وقوام القصة بطبيعتها الخيال ، وإن تراوح نصيبها منه ، فهناك القصص التى ترمى إلى أغوار الماضى وتدور حول عظماء التاريخ والأساطير ، من طموح يبيع نفسه للشيطان كى يعينه الشيطان على إدراك مطامحه ، إلى دائن يتقاضى دينه من لحم غريمه ودمه ، كما فى روايات مارلو وشكسبير . وهناك القصص الواقعية التى تلتزم الحقيقة إلى حد بعيد ، وتصور المجتمع الحاضر تصويرا دقيقا لايدع شاردة ولا واردة ، كقصص هاردى ، ودرامات جالزورذى ، ولكل من الضربين متعته

ولشغف الانجليز بسبحات الخيال ، وميلهم إلى إطلاق الفكر فى أجوازه ، لجأوا فى شعرهم ونثرهم إلى تصوير حوادث التاريخ وغرائب الأساطير ، فاستقى شعراؤهم وكتابهم عذب القصص وممتعه من تاريخ انجلترا وتواريخ اليونان والرومان وبنى اسرائيل وغيرهم ، واتخذوا من خرافات الأمم مجالا لفنهم ، فعرض سبنسر وتنيسون وكولردج وغيرهم تلك الخرافات عرضا شعريا رائقا مرصعا بجميل الوصف وبدائع المناظر الطبيعية ، وشائق مواقف الحب والبطولة .

ومن ثم امتلأ الأدب الانجليزى بأسماء الشخصيات الخيالية التى اخترعها الأدباء من مخيلاتهم ولم يكن لها قبلهم وجود أو كان لها وجود مبهم فى عالم الخرافة فأخرجوها بعبقرياتهم إلى عالم النور والوضوح ، وألبسوها ثوبا من الجمال والجاذبية ، وأصبح بعض هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين امتلأت بذكرهم وأخبارهم الملاحم والقصص والشعر والنثر ، أعلاما على طبائع فى الانسان معروفة ، ورموزا على حقائق فى النفس البشرية مشهودة ، فشكسبير مثلا لم يكن يدع خلقا إنسانياً نبيلا أو وضيعا إلا صوره فى رواياته وخلق مالا يعد من الشخصيات الحية ، مثل هملت وروميو وجولييت وياجو وشيلوخ ، وغيرهم ممن صارلهم وجود قائم فى عالم الأدب كوجود أعلام الماضى فى عالم التاريخ

لم يجر الأدب العربى إلى هذا المدى من الخيال ، فلم تكن فيه ملاحم ولم تكن المطولات من هم شعرائه ، ولم يرتق فيه القصص ولم يحتو على شخصيات متخيلة من خلق الأدباء ، وظل الحاضر القريب والواقع المحقق ديدن أدبائه ، فالأديب العربى كان شديد الايجاز فى مقاله وتعبيره عما يحس ، يعبر عن أفكاره أشتاتا كلما عن له حافز إلى الكتابة ، لايدخر أفكاره ولا يربط منها حاضرا بماض ، بل يرسلها الشاعر على السجية أبياتا محكمة النسج موجزة البيان ، ويرسلها الكاتب روايات قصيرة متتابعة منسوبة كل رواية منها إلى صاحبها أو راويها أو شهودها ؛ فأحسن أشعار المتنبى حكم موجزة متتابعة مستقل كل منها ببيت لاتكاد تجمعها علاقة ؛ وقوام كتب كثيرة كمؤلفات الجاحظ والثعالبى وابن عبد ربه روايات وشواهد متتابعة ، لايكاد يكون للأديب فضل غير جمعها وتبويبها

كان الشعر الجاهلى محدود الخيال قريب المأخذ لمكان أربابه من البداوة وبعدهم عن الثقافة ، فلما تحضر العرب وتثقفوا واختلطوا بالأمم واطلعوا على أحوال الأقطار البعيدة ، اتسع من

جراء ذلك خيالهم وبان أثره فى شعرهم ونثرهم ، فالمحدثون من الشعراء لاشك أبعدخيالا وأكثر تفننا فى التشبيهات من الجاهليين. وظهر ضرب من القصص الخيالى يتجلى فى مقامات بديع الزمان ، ورسالة الغفران ، فنى هذه وتلك مواقف وحوادث كلهامن اختراع الخيال ؛ ثم هناك الروايات والأخبار العديدة التى كان يخترعها الرواة والكتاب ، يطلبون الاغراب والتطرف والرواج ، أو يؤيدون الحجج والمذاهب.

بيد أن هاتيك جميعا آثار ضئيلة الشأن ، وهى إذا قيست بمافى الانجليزية من سبحات الخيال ، لم تكن إلا شبيهة بطيران الدجاجة الخفيف مقيساً بتحليق البازى الكاسر ؛ ورسالة الغفران على جمال فكرتها ومشابهتها لما فى آداب الأمم الكبيرة فى جريان حوادثها فى عالم الخلد ، وامتلائها بممتع المواقف والمحاورات ، مكتظة بمسائل النحو والأدب النظرية العقيمة ، التى كان كثير من الأدباء ينفقون أعمارهم فى غياهبها غافلين عما هو أهم منها من حقائق الحياة وجمالها ، ولم يكن الخيال ولا الجمال ولا القصص غرض المعرى الصحيح حين أملاها ، وإنما كانت تلك المسائل اللغوية هى مقصده الأول ؛ ومقامات البديع على جمالها واهتداء البديع إلى اختراع شخصية أبى الفتح فيها ، مكتظة كذلك بالألاعيب اللفظية والبراعات اللغوية ؛ فالمقامات ورسالة الغفران جميلتان على أن تكونا خطوتين إلى مابعدهما ، ومرحلتين فى طريق نمو القصص الصحيح وازدهار الخيال الراقى ؛ بيد أن ذلك النمو لم يطرد وذلك الرقى وقف فى أول الطريق . وإن من العجائب حقاً أن يكون أعظم أثر خيال فى الأدب العربى من صنع شاعر كفيف محجوب عن آفاق الحياة ومباهجها

فكبح عنان الخيال كان دأب أدباء العربية حتى بعد دخول الأدب عصره الفنى ، فالفكرة التى تخطر للأديب الانجليزى فيحوك حولها قصة تموج بشتى الصور المنتزعة من الحياة ، أو ينظم حولها قصيدة طويلة تجمع أشتات الأفكار والمعانى ، يكتفى الأديب العربى بصوغها فى بيت شعر محكم يذهب مثلا ويروع بايجازه وشموله ، لا بتقصيه واستيعابه ، فكل بيت من أبيات المتنبى السائرة يحوى نظرة نافذة إلى حقائق الحياة ، هى بنفسها محور صالح أن تدور حوله قصة أو درامة ، بينما الأديب العربى قد أودعها أوجز لفظ وأعمه

وقد نظم شلى قصيدة فى قرابة مائة بيت ، حين استرعى تفكيره هبوب ريح الشتاء الباردة فى إيطاليا ، فصور عصفها بالأوراق الجافة ، ودفعها البذور إلى حيث تنام فى التربة حتى ينبهها الربيع بدفئه وطيب أوانه ، وشبه ثوران عاصفتها على الأفق بالشعور المنهدلة عن رأس مايناد احدى العرائس الخرافية ، ووصف اقشعرار النبات المائى فى قاع المحيط لدى إحساسه مرور تلك الرياح ، ثم طلب إلى الريح أن ترفعه كما ترفع تلك الأوراق وتدفعه كما تدفع تلك البذور ، وتنفخ فيه من قوتها ، وتتخذه ناياً لها ، علّه يستطيع أن يطير بأجنحتها ، ويبذر بين الخلق بذور أفكاره الاصلاحية التى كان أميناً لها طول حياته . ولشكسبير مقطوعة عن ريح الشتاء أيضاً فى رواية « كما تشاء » ، يسترسل فيها فى التأمل على ذلك النحو ؛ أما الشاعر العربى فاذا استرعى انتباهه هبوب الريح فيودع خاطره أوجز لفظ ، واصفا تهييج الريح لذكرياته أو محملا إياها سلامه إلى أحبائه ، كما قال بشار :

هوى صاحبى ريح الشمال وإنما أحب لقلبى أن تهب جنوب
وما ذاك إلا أنها حين تنتهى تناهى وفيها من عبيدة طيب

والغريب أنه برغم غنى الأدب الانجليزى بآثار الخيال وندرة تلك الآثار فى الأدب العربى ، ترى كلمات الخيال وخيال الشعراء والمخيلة وغيرها كثيرة التداول فى العربية نادرة الورود فى النقد الانجليزى ؛ وإنما كان نقاد العربية يطلقون اسم الخيال على أبعد الأقوال عن مجال الخيال الصحيح ، يطلقونه على مادرج عليه الشعراء المداحون من اختراع مواقف الغرام فى استهلال قصائدهم ، وتلفيق صفات الجود واليأس لممدوحيهم ، ومن ثم اشتهر البحترى بالخيال ، لا لأنه دبج القصص المحكم أو نظم المطولات الرائعات بل لأنه كان من أمضى الشعراء فى بابى المديح والغزل الاستهلالى ، ومن أكثرهم ذكراً للأطياف والوداع واللقاء ، وليس تحت مثل هذا الخيال طائل ، إذ قوامه التكلف والمحال والا يغال فى البعد عن حقائق الحياة والشعور ، بينما اخص خصائص الخيال الفنى الصحيح صدق البيان للشعور الصحيح فى أعمق أعماقه وأرحب آفاقه

فاذا قال بشار إن الجود من كف ممدوحه يعدى ، وقال أبو تمام إن ممدوحه لايستطيع قبض أنامله لأنه تعود بسطها بالعطاء ، وقال المتنبى إن أسنان صواحبه برد خشى أن يذيبه من حر أنفاسه فكان هو الذائب من حر أشواقه ، وإذا شبه ابن المعتز الهلال بمنجل يحصد نجوم الليل حصداً ، أو شبه ابن خفاجة النهر وعشب ضفافه بهدب يحف بمقلة زرقاء ، فقد باعدوا جميعاً وأغربوا وخالفوا حقائق المنطق والشعور ، وجاءوا بما هو أشبه بعبث الصبيان وهذر المخمورين ، وكان قولهم أبعد الأشياء عن الخيال ، فالخيال ليس هو تجاهل حقائق الحياة وتحديها والتفنن فى مناقضتها ، وإنما هو قدرة الفكر على استيعابها والاشتمال على قريبها وبعيدها ، والتصرف فيها

والتفنن فى عرضها ، ولاغرو إذ كانت تلك نظرة نقاد العربية إلى الخيال أن قالوا إن أعذب الشعر أكذبه ، والحق أن أعذب الشعر أصدقه ، وأجود الخيال أكثره اشتمالا على الحقيقة

وغزارة آثار الخيال فى الأدب الانجليزى ترجع لا شك إلى اختلاف مناظر الطبيعة فى انجلترا وتعددها وتقلب أحوال الجو ، ثم هى ترجع إلى اتساع أذهان الانجليز باقتباسهم حضارة أوربا ومساهمتهم فيها ، وإلى الكشوف الجغرافية العظيمة التى عاصرت نهوض الأدب الانجليزى ، وهى ترجع أيضاً إلى اطلاع الانجليز على الأدب اليونانى الحافل بروائع الحوادث والأساطير ، المملوء بأشعار الملاحم والدرامات ، فقد كان لشعراء الانجليزية وكتابها من ذلك معين لا ينفى ، وكان الاطلاع على التراث الكلاسى بمثابة كشف جغرافى آخر واطلاع على عالم ثان غير هذا العالم المعهود ، مما أطلق الأذهان إلى غايات الخيال ، وكان للأدب العامى فى ذلك أثره أيضاً

وترجع ضآلة حظ الأدب العربى من الخيال الصحيح السامى ، وكثرة ما به من آثار التخيل الزائف ، إلى نزعة الجمود التى كانت تسوده وتقره دائماً على محاكاة الأقدمين واحتذاء الأدب الجاهلى ، وهذا بطبيعته المتبدية وبيئته الصحراوية التى ترعرع فيها ، أدب أولى قليل الحظ من الخيال كثير الالتزام للواقع الحاضر ؛ هذا إلى اشتغال الأدباء بمدح ذوى السلطان واجتهادهم فى تخيل كل منقبة وإضافتها اليهم ؛ أضف إلى ذلك أن الأدب العربى لم ينتفع كما انتفع الأدب الانجليزى بأدب الاغريق ، فحجبت عنه تلك العوالم الزاخرة بالحقائق والخيالات . وقد اطلع العرب على فلسفة الاغريق فحاكى غير واحد من فلاسفتهم جمهورية أفلاطون بتخيل المدينة الفاضلة ، ولو اطلعوا كذلك على أدبهم لاستفادوا منه فائدته المحتومة

ظل الأدب العربى مكبوح الخيال ملتزماً للواقع مؤثراً للايجاز متشبثاً بالرواية التاريخية المسندة ، وترك الخيال الواسع للعامة يسبحون فى عوالمه التى تستهوى النفس الانسانية ، فجالوا فى نواحى القصص يودعونه أفكارهم على ما بها من قصور ، وآمالهم على ما بها من سذاجة وما يشوبها من شهوات الحس ، وثقافتهم على ما يخالجها من جهل واضطراب ، وجاء الأدب العربى الفصيح فى أزهر عصوره مشتملا على ضروب من التخيل الفج لا يستسيغها لب ، ولا يقرها فن ، مشتملا بجانب ذلك على وجدانيات صادقة وحكم وأمثال رائعة موجزة ، هى خير ما فى الأدب العربى من لباب الفكر والشعور ، فالأدب العربى يبلغ قمة مجده بما فيه من آثار الحكمة ، لا بما يحويه من صور الخيال

فتحى أبو السعود

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٤ —

الديانة المصرية — التوفيق بين الديانة والفلسفة

انذيوع عقيدة تأليه الملك أو حلول روح القدس فى جسده الذى حدثناك عنه فى الكلمة السابقة قد خلق أمام العقل المصرى مشكلة معقدة عويصة يمكن أن تعتبر اللبنة الأولى من بناء الفلسفة المصرية ، وأن تعد محاولة حلها أقدم المحاولات الفلسفية التى عرفها تاريخ العقل البشرى ، لأن عهدها يصعد فى سلم الماضي أكثر من ستة آلاف سنة ، وأين من هذه الفلسفات الأخرى التى لا يتجاوز أقدمها بضعة عشر قرنا قبل المسيح ؟ تلك المشكلة التى نشأت عند المصريين من تاليه الملك هى : « إننا نشاهد أن الملك يموت كما تموت عامة الناس فكيف يموت الإله الذى أولى صفاته الخلود ؟! » .

لم تكد هذه المشكلة تأخذ مكانها فى الحياة الفكرية المصرية حتى وجد المتفلسفون الأولون لها حلا وهو أن فرعون لا يموت كما يموت الناس ، وإنما حين يعجز جسمه المادى عن النشاط العملى يخرج منه السر الإلهى أو الروح القدس ، ليحل فى جسم ابنه الشاب الممتلىء قوة ونشاطا . وإذاً فروح « هوروس » هى التى تحكم فى كل هذه الأجساد المختلفة المسماة بالفراعنة والتى أطلق على كل جسد منها اسم خاص فى الظاهر فحسب ، ولكن هذا الجواب لا يشفى غليل المتفلسفين الباحثين عن خفايا الكون وأسرار الوجود ، لأنهم لا يكادون يتلقون هذا الجواب حتى يصطدموا بالتقاليد الدينية التى تصرح بأن فرعون وهو فى قبره يعين ابنه على الحكم وينصحه فى المواقف الحرجة . ومن هذا تنشأ مشكلة فلسفية أخرى وهى « كيف تقولون إن روح (هوروس) تغادر جسم فرعون الماثت بعد عجزه عن النشاط إلى جسم ابنه الشاب النشيط ثم